



تركي الحمد

كي لا نلدغ من ذات الجحر الواحد مرة تلو أخرى

□ في أعقاب انتصار الثورة الإيرانية (عاد الخميني منتصرا إلى طهران في الأول من فبراير/ شباط 1979)، وحادثة الحرم (20 نوفمبر/ تشرين الثاني 1979)، والغزو السوفيتي لأفغانستان (25 ديسمبر/ كانون الأول 1979) مع ما رافقه من مقاومة أفغانية ذات نكهة إسلامية، حصلت انتكاسة حضارية، إن صح التعبير، في عالم العرب والكثير من بلاد المسلمين، حين تحول الإسلام المعاصر تحولا شبيه كامل إلى أيديولوجيا سياسية محضة من جديد، كما كان الوضع في الأيام الخوالي، وتركت المنطلقات الحضارية، ومحاولات عصرنة مبادئ الإسلام وراء الظهر، وبدأت مزايدات أيديولوجية متشددة متصاعدة على الخطاب الديني بشقيه السني والشيوعي. فنور الخطاب الديني الشيوعي، بعد أن كان في حالة سبات واستكانة انتظارا لخروج المهدي "صاحب الزمان"، وإن كان بفكرة استبدادية كفكرة "ولاية الفقيه" التي بشر بها آية الله الخميني بصفة خاصة، واستغلت فكرة "المظلومية" التاريخية لدى الشيعة في تاجيح المشاعر وتعبئة الأنصار في كل مكان، وتورث السلفية وخطابها لتتحول إلى سلفية جهادية أطلت برأسها في السعودية مع جهيمان وحركته "المهدوية"، في استغلال إسقاطي لأحداث الفتن وأشرط الساعة وحوادث آخر الزمان، وأجج الزخم العاطفي الديني الذي رافق حركة "الجهاد" الأفغاني، كل ذلك أدى إلى استهلال ما اصطلح على تسميته لاحقا من قبل الثائبين و"العائدين إلى دين الله أفواجا" بالصحوة، والتي تبين أنها كجوة وأي كجوة، وغفوة وأي غفوة، تُضاف إلى غفوات وكجوات زخر بها تاريخ العرب والمسلمين، الحديث منه والقديم في وقت كانت فيه المجتمعات العربية قد بدأت تنشق طريقها إلى الأمام، فإذا بها تعود أدراجها إلى الوراء من جديد، ولا يسفر ذلك كله إلا عن خفين لحين، أكل عليهما الزمن وشرب. ولجعل القصة الطويلة قصيرة، كانت تلك "الصحوة" مجالا لمزايدة المزايدن سياسيا، ورهان المتراهنين إيديولوجيا، سواء من الحكومات القائمة المزايدة على بعضها البعض، كما في الحالة السعودية الإيرانية مثلا، أو على خطاب الحركات الإسلامية وغير الإسلامية المعارضة، أو من قبل ذات الحركات الإسلامية على بعضها البعض، حيث أصبح الكل يُعلن أنه هو الأكثر "إسلامية" من الآخر، والأقرب إلى الله و"الفئة الناجية" من الآخرين، ويحاول أن يُثبت ذلك من خلال التشدد والتزمّت والمزيد من تضيق ما وسّعه الله، ودخلنا في معمة المزايدة الدينية المؤدلجة، وذلك على حساب كل شيء آخر، سواء كان هذا الشيء الآخر هو التنمية أو الوعي أو الإسهام في الحضارة العالمية، ففي مصر مثلا، دفع "الرئيس المؤمن"، محمد أنور السادات حياته ثمنا لتلك المزايدة، التي أراد من خلالها تحقيق هدف سياسي معين هو قمع معارضيه من مختلف الأطياف السياسية والفكرية، من خلال التحالف مع التيارات الإسلامية التي أخرجها من السجون، وفتحها حرية العمل السياسي، فكان أن سلم عنقه لمن قطعه في النهاية، فكان ممن ينطبق عليهم المثل الشعبي: "عزّ وحفرت عن سكينها".

انتكاسة حضارية

في السعودية، حصلت انتكاسة حضارية على مختلف الأصعدة وفي كل الوجوه، الثقافي منها والاجتماعي والتنموي والتعليمي، بالرغم من أن الشرعية السياسية السعودية تقوم على أساس ديني دون حاجة لتأكيدا، ورغم ذلك دخلت في مزايدة مع المزايدن، فقدمت الدولة السعودية التنازلات تلو التنازلات لكل من رفع شعارا إسلامويا، أو انتقد "الترابي" المزعوم للدولة في مجال الخروج عن تعاليم الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب، أو وهابية القرن الثامن عشر، وكان المجتمع السعودي كان مجتمعا جاهليا قبل ذلك، فكان أن انتصر خطاب جهيمان، الموعّل في بساطته وسداجته، فعليا وعلى الأرض، بالرغم من أنه ومريديه قد أعدموا جسدا. كان من الممكن للسعودية أن تكون نموذجاً لإمكانية التمازج بين الإسلام والمعاصرة، والعمل على تقديم خطاب حضاري لا يتجاهل الدين ولا يتناسى نصيبه من الدنيا، قبل تنازلات ما بعد حادثة الحرم، خاصة وأنها لا تحتاج لإثبات شرعيتها الدينية أسوة ببلاد أخرى لا تقوم شرعيتها على أسس دينية من الأصل، وبالتالي لا

تحتاج لأن تضع نفسها على مستوى المقارنة مع بلاد أخرى، ولكن ما حدث كان مختلفا، وكان السعودية بتنازلاتها وتراجعاتها تحاول أن تثبت للإسلاميين الجدد أنها قد خرجت فعلا عن تعاليم الوهابية النقية، وها هي تعود إليها من جديد. صحيح أن هنالك ظروفا سياسية وإقليمية ودولية قد تكون أجبرت السعودية وغير السعودية على تقديم مثل هذه التنازلات، كجزء من اللعبة السياسية آنذاك وأوراقها، والسير في ركب "الصحوة المباركة" كنوع من المهادنة السياسية وفرد أشرطة قارب الدولة حيث اتجاه الريح، ولكن الاستمرار في السير على خطى الخطاب الإسلامي الجديد، رغم كل ما تبين من طرفه وتعسفه في فهم مقولات الدين، مع ما يرافق ذلك من شيق للدم وهوس بالقتل باسم الجهاد، ضد الآخر المختلف في الداخل والخارج، هو ما تبين واضحا في أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول عام 2001 في نيويورك، بل وقبل ذلك بعد تفجير مقر بعثة التدريب الأميركية في حي العليا في الرياض، في الثالث عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1995، وتفجيرات أبراج الخبر في الخامس والعشرين من يونيو/ حزيران عام 1996، ثم تفجير الرياض في الثاني عشر من مايو/ أيار عام 2003، كان في ظني خطأ فادحا أدى في النهاية إلى نتائج كارثية، ليس أقلها اندفاع الشباب السعودي إلى الانضمام إلى تنظيمات القاعدة و"النصرة" و"داعش"، وغيرها من التنظيمات التي أفرزها خطاب القاعدة "الجهادي"، يمثل ما أفرز خطاب الإخوان المسلمين في مصر معظم تنظيمات "الغضب" الإسلامي، حتى أصبح الشباب السعودي يشكل كتلة ضخمة من أعضاء تلك التنظيمات، إن لم تكن الأضخم، ويبادق على رقعة شطرنج لا يدرون من يلعبها وراء الكواليس، فقد يكون أي أحد بدءا من إيران وغير انتهاء بالأسد في دمشق، و فوق الجميع ربما أباد أميركية وروسية تحرك الخيوط، ولا ما هو الهدف الخفي للعبة كلها، ويكفرون مجتمعاتهم وأوطانهم وحكوماتهم ويترؤون منها، ويهددون بغزو الرياض و"فتح مكة" بعد الانتهاء من الموصل وبغداد ودمشق. لقد نجحت السعودية، وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، في مكافحة الإرهاب نجاحا باهرا، وهذه نقطة ناصعة البياض تُسجل فعلا للسلطات السعودية، ولكنه كان نجاحا أمنيا تقنيا إن صح التعبير، أي في اجتناب الفعل أو منعه قبل وقوعه، ولكنه لم يتراق مع مكافحة فعليه للخطاب والعقل الذي يقف وراء فعل الإرهاب والعنف، لأسباب ربما تعود إلى الخوف من تفتت محتمل للشرعية الدينية التي تقوم عليها الدولة، وهو خوف إن وجد فهو غير مبرر وفي غير محله في ظني، فقد كانت السعودية ومنذ تاسيسها تربط شرعية وجودها بالعمل الديني دون سواء، في الوقت الذي كان فيه الآخرون يتنصلون منه، وبقيت تسمى هؤلاء وأولئك "بالفئة الضالة"، أي أنهم مجرد مجموعة من التائهين، ومن الممكن إعادتهم إلى سواء السبيل بالمحاجة والمناصحة والإقناع، ولكن دون المساس بجذور الخطاب، وهو أمر أثبتت الأيام عدم جدواه لحد كبير، خاصة بعد أن ولغ الكثير منهم في الدم أو حرضوا على سفكه، فالضحية أبعد من قضية المحاجة والمناصحة، طالما بقي الإطار العام لخطابهم هو ذاته المؤطر لخطاب ذات الدولة، وطالما وضعت الدولة نفسها على ذات المستوى من المساواة معهم، حين زايدت على خطابهم كلما زايدوا على "انحرافاتهما" العقيدية المُدعاة.

هل معنى ذلك أن تتخلى الدولة عن الدين جملة

وتفصيلا، أو تنقض شرعيتها السياسية نقضا تاما؟ ليس الأمر كذلك بطبيعة الحال، فالتخلي عن خطاب معين يقوم على ركائز دينية لا يعني التخلي عن ذات الدين، القادر على إفران مختلف أنواع الخطاب الثقافي والسياسي، المتشدد منه والمتسامح، خاصة وأن جوهر الشرعية الدينية للدولة هو "التجديد"، مع الأخذ في الاعتبار تغير محتوى التجديد حسب متغيرات الزمان والمكان، ولا يذكر اسم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الأب الروحي للدولة السعودية، إلا مترافقا مع وصفه "بالإمام المجدد"، والخيار في كل ذلك لصانع القرار، والقرآن الكريم حمّل أوجه في الأول والآخر.

الأعلام السود

اليوم، ها هي "داعش" ترفع "الرايات السود" في العراق والشام، وتعلن "دولة الخلافة الإسلامية" على المسلمين كافة، ومبايعة أبي بكر البغدادي أميراً للمؤمنين، وهو رجل نكرة لا يعرفه أحد، كما فعلت "طالبان" من قبل حين أعلنت الإمارة وبايعت الملا عمر خليفة للمسلمين، وتطبق برنامجهما في المناطق التي تسيطر عليها وفق استراتيجيته "إدارة التوحش" التي تمثل خريطة طريق بالنسبة إليهم في هذه المرحلة، وإدارة التوحش هذه تقوم على أساس توزيع المهام، وتسيير أمور العامة الذين "تحرروا" من سلطان الدولة القائمة، وذلك لحين الوصول إلى مرحلة "التمكين"، ومن ثم إعلان الدولة الشاملة، والتي من ضمنها تضيق حلقة الدين حتى تصبح كسُمّ الإبرة أو أضيّق، ونفي كل خطاب عدا خطابها الموعّل في التشدد والتزمّت، واسترخاض الأرواح، واستحلال الدماء والأعراض والأموال باسم الله، والله من كل ذلك براء، ووفق نهج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والرسول الإنسان المهداة رحمة للعالمين براء من كل ذلك، وكل الخشية اليوم أن تبدأ مزايدات جديدة شبيهة بمزايدات "الصحوة المباركة"، ومزايدات المرحلة الأفغانية، فنعود إلى الدوران من جديد في حلقتنا التاريخية المفرغة والمغلقة، فترتفع الأعلام السود تارة من الشرق وأخرى من الغرب، ويزايد المزايدون بين الشرق والغرب، وفي النهاية تنقلب على أعقابنا خاسرين المرة تلو المرة، عوضا عن إعلان الحرب على مثل هذا الخطاب وتفسيره الموعّل في المروق من الدين باسم ذات الدين، ففي الحديث الصحيح أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال: "سيخرج قوم في آخر الزمان، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما ليقتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة".

وفي الحقيقة، فإن لديّ قناعة تامة بأن داعش أو القاعدة أو جبهة النصرة أو أنصار الشريعة أو الإخوان المسلمين، أو غيرها من تنظيمات وتيارات إسلاموية، مصيرها السقوط والاندثار في النهاية، حتى وإن أقامت دولة أو أنشأت كيانا سياسيا

معينا، وما تجربة طالبان الأفغانية عن الذهن ببعبعد، بل وما التجربة الخوارجية والقرمطية والإسماعيلية الصباحية التاريخية وغيرها ببعبعد عن الأذهان، وهذا ليس من باب التمني والتفكير الرجبي (Wishful Thinking)، كما قد يتبادر إلى ذهن البعض، ولكنه قائم على أسس أظنها موضوعية، لعل من أهمها أن مثل هذه التنظيمات والتيارات ذات قدرة على التهييج والتأجيج والتجيش ودغدغة مشاعر المحبطين واليائسين والعاطلين والضائعين والمنتشين بخرم خطاب يتلاعب بهواجسهم ورغباتهم وشهواتهم، ولكنها غير قادرة على إدارة الدولة وفق خطابها المعلن، والذي عبّات من خلاله الانتصار والمريدن، وخاصة في ظروف مثل ظروف العصر الذي نعيشه، وإن فعلت، فإن ذلك لا يكون إلا بالتخلي عن خطابها المؤسس، وهنا تفقد طبيعتها بكونها "حركة إسلامية"، وتتحوّل إلى دولة كأي دولة أخرى بكل عيوبها المُنتفض عليها سابقا، وما يعنيه ذلك من فقدان الأنصار والاتباع المنتشين بوجودانيات الخطاب، فيبدأون بالبحث عن تنظيم جديد وخطاب جديد في ثنانيا الخطاب القديم، وبين أطلال التنظيم العتيق، طالما بقيت الظروف هي ذات الظروف، وتعود الرايات السود إلى الظهور من جديد، باسم جديد، وخطاب جديد هو في جوهره ذات الخطاب الذي أدى إلى نشوء الدولة المغضوب عليها، وهكذا دواليك، وهذا هو في الحقيقة موجز نشوء الدول في تاريخنا العربي الإسلامي وسقوطها، وهو التاريخ الذي لا زال يعيش بيننا رغم تغير زمان العالم من حولنا. ومثل هذه التنظيمات والتيارات في زمننا الحاضر، تعتقد أنها قادرة على إعادة عجلة الزمان إلى الوراء، على افتراض إخلاص من يُحرك الخيوط في الخفاء، وعلى افتراض أنه ليست هناك أهداف وراء الستار، وتكرار تجربة تاريخية كانت لها ظروفها ولكنها درست واندرت، كتجربة الخلافة مثلا.

السقوط هو المأل.. التاريخ لا يعيد نفسه

لكن التاريخ لا يعيد نفسه، إلا إن عاد قورش وكسرى أنوشروان إلى بلاد فارس، أو بعث يوليوس وأغسطس قيصر في روما، أو شارلمان في بلاد الغال أو فرنسا، فبمثل ما كانت "الكسروية" و"القيصرية" والإمبراطورية الرومانية المقدسة"، تجارب تاريخية لها ظروفها وبيئتها الصانعة للحادث، فإن "الخلافة" هي مثل ذلك، ولكنك لا تجد اليوم من يحلم بعودة كسرى أو قيصر أو الإمبراطور كلي القدرة، إلا من قبل من اختلقت لديهم الوقائع بأحلام ليالي الصيف، أو أحلام يقظة لا استفاقة منها، وهؤلاء وأولئك هم من غير الأسوياء في النهاية، وقد حاول نينبو موسوليني أن يعيد القيصرية إلى أوروبا انطلاقا من روما بفاشيته، وحاول أدولف هتلر إعادة "الرايخ" الأوروبي وبعث الروح في ثنانيا الإمبراطورية المقدسة بنازيته، فكانت النتيجة دمارا ليس بعده دمار، فهل هذا ما يسعى إليه هؤلاء: بحيرات من الدماء وتلال من الجماجم، قبل أن يكون السقوط هو المأل؟

والغريب في الأمر أن أوروبا وغير أوروبا اتعلقت بما حل بها من كوارث نتيجة أوهام وأطماع وطموحات ما أنزل الله بها من سلطان، ولا خطرت على قلب سويّ من الإنسان، فلم تلدغ من ذات الجحر مرتين، ونحن الذين من المفترض أن نهدّي بقول نبي آخر الزمان: "لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين"، لدغنا من ذات الجحر مرات ومرات، وستلدغ مرات ومرات، إذا بقينا كصبي بافع، أو عديم عقل ضائع، استهوته وأمتعته رعشة الكهرباء حين أدخل أصبعه في مقبسه، فأخذ يُدخله المرة تلو المرة وهو ملتذ بالعمق تشبوه متعة،

”

لم تنشأ داعش من فراغ، فنحن من أنشأها بوعي من أجل غايات في النفس خفية، أو دون وعي نتيجة أوهامنا المشعشة في الجماجم، وخطابنا المبشر بأساطير لا سند لها من دين أو واقع أو تاريخ

“

غير عالم أن ذات الرعشة هي من ستقلته في النهاية. أجل السقوط هو المال في النهاية، فما لا يقوم على أساس يهوي ويندثر، ولكن كم من العذابات والإلم علينا أن نتلقّى قبل أن يحدث ذلك. بل كم من الكوارث والكبوات تحملها لنا رياح المستقبل، إن لم نخذل عن أوهام التاريخ وخطابها المبشر بالضياغ، ونعالج الأسباب الحقيقية لظاهرة تركها الآخرون، وبقيت تعيثُ فسادا بين جوانحنا، وكاننا مازوخيون يستلذون الألم، ويتمتعون بالأم الروح والجسد معا.

الخروج من الحلقة

يقول زبيجينو برجيسكي، مستشار الأمن القومي الأميركي السابق في عهد الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر: "الإرهابيون لا يسقطون من السماء"، وبمثل هذا القول يُمكننا القول إن "داعش" لم تسقط من السماء"، والحديث عن داعش يشمل غيرها. فداعش في النهاية منا، وشبابها المحترق كالفراشة بمتعة في لظاها هم شبابنا المحبب والمتحفز والمتحمس والمخدرة خلايا أدمغتهم بخطاب قيل لهم إنه هو دين المصطفى الأمين، وإنه السبيل الأوح للفلز بالدنيا والآخرة معا، مع أنه في النهاية ليس من الدين في شيء، إلا إن كان الدم على قميص يوسف هو دم يوسف. لم تنشأ داعش من فراغ، فنحن من أنشأها بوعي من أجل غايات في النفس خفية، أو دون وعي نتيجة أوهامنا المشعشة في الجماجم، وخطابنا المبشر بأساطير لا سند لها من دين أو واقع أو تاريخ، يستوي في ذلك الدول ذات الغايات، والجماعات ذات الطموحات، والأفراد من أتباع الشهوات، وظروفنا المعيشة الناقلة لكل جرائم الفساد بكل أنواعه، وقيروسات قهر الإنسان بكل أشكاله، وميكروبات الجهل والتجهيل، رغم العلم والتعليم، لا بد من الخروج من حلقتنا التاريخية المفرغة هذه، التي لا تكاد تنتهي حتى تبدأ من جديد، وهذا لا يتم إلا بخطاب يُبشر بالقطيعة مع أوهام خشيت في الرؤوس لغايات أربابها أعلم بها، ومع تاريخ نمجده ونحترمه ونستفيد منه، ولكن لا نحاول إعادته، فالذاهب مهما كانت قيمته وحبنا له لا يعود. بالطبع سيأتي من يقول: أي دعوة إلى القطيعة مع ما ألصق بالدين من أفعال، فالدين جزء من كياننا الفردي والجماعي، ويجري في عروقنا مجرى الدم، ولكنه دعوة إلى القطيعة مع ما ألصق بالدين من أفعال هي من صنع الإنسان أولا وأخرا، أما الدين فهو باق إلى يوم يُبعثون، والإنسان بطبعه كائن متدين كما يقول الباحثون، ولم تندثر المسيحية مثلا في أوروبا وأميركا نتيجة مثل تلك القطيعة، ولكنها تحررت من ربة الأوصياء والتجار والمتكسبين والمتلاعبين بالشعارات، وذلك حين أصبح الدين لله، يُمارسه الفرد بكامل إرادته وحرية وقناعته، دون قسر أو إكراه أو منع، والوطن للجميع، شركاء فيه يدبرونه وفق مصلحة الجماعة، في ظل قانون لا يُفرق بين الوزير والفقير، والشريف والضعيف: "إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"، مبدأ طبقه أهل القانون من غير المسلمين، وضرب به عرض الحائط من كان من المسلمين، فأعزهم الله بالقانون، وأذلنا الله بالطغيان، ورحم الله ابن القيم وهو القائل: أينما كان العدل، فثم شرع الله، ولتذكر دائما تلك الحكمة القائلة: زرعو فاكلنا، ونزرع فياكلون، فلنتوخى الحذر دائما فيما ندفن في الأرض من بذور، فمن يزرع الحنظل لا يتوقع أن يحصد العنب.. هذا، ويبقى الأمر لله من قبل ومن بعد.

